قصة

ميلاد النبي ﷺ

هذه قصة وضعناها من قبل نموذجاً لما يحسن ان تكون عليه قصة المولد النبوي ونحن نعيد نشرها فى هذا العدد استيفاء لما يجب ان يشتمل عليه هذا العدد الخاص من الابواب والفصول والانواع :

مقدمة

لقد الفت قصص فى مولد محمد ﷺ تبارى فيها مؤلفوها فى الاغراب ، وفيما يبعث فى نفوس السامعين النشوة والطرب والاعجاب ، فحشوها بما لا يصح من الاخبار ، وقصروها على وصف محاسن النبي الجسمية الحسية كوصف طرفه بالدعج وخده بالبياض المشوب بالاحمرار ، فكان كلامهم فى هذه الموالد من نثر وشعر كانه دواوين الغزل والنسيب ، والافتنان فى بيان دواعى الهيام بالمعشوق والحبيب ، وقصدوا فى كلامهم المحسنات اللفظية ، مع ضعف ملكاتهم الانشائية ، وقلة بضاعتهم من اللغة العربية ، واضافوا الى ذلك وضعه على اساليب غنائية ، فخرج كلامهم على الغالب ركيكا هزيلا ، ومكدودا متكلفا ، وغثا باردا .

وقد كان الصواب ان يذهب فى تأليف المولد غير هذا المذهب فيستكثر فيها من بيان خلائق النبي العظيمة وشمائله الكريمة وبذله النفس والنفيس فى سبيل الله ولاعلاء كلمة الله وان يحث فيها على الاقتداء به والاخذ بسيرته والسير على طريقته ولكن المؤلفين ذهبوا غير المذهب على ما بيناه آنفاً وكثير من العلماء فى هذا العصر فطنوا الى عيب تلك القصص ونبهوا اليه وبعضهم انبرى فألف موالد على ما رأى انه الصواب والذي ينبغى ان يسار عليه فى قصة مولد النبي ﷺ لكنه بقى محتفظاً باساليب التلحين والغناء وما يبعث فى النفوس الطرب والانتشاء وهذا لعمر الله اجدر ما ينبغي ان ينزه عنه المولد النبوي الشريف فان اللهو واللعب ودواعى الانتشاء والطرب فى القربات مكروه فى ديننا ومذموم فى شريعتنا وقد عاب الله صلاة المشركين بما كان فيها من لعب ولهو قال تعالى : « وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء (١) وتصدية (٢) .

(١) المكاء : الصفير (٢) التصفيق

والذى نراه فى قصة الموالد التى تتلى فى الحفلات والمجامع ان تكون قصة لا تحوى الا ما رواه العلماء المحققون فى اخبار ولادته ونشأته ، ومرباه وسيرته ، مما يحدو على الفضائل ويبعث على المكـــارم وان يضمن مقطعات من عيون الشعر مما قاله الشعراء ممن كانوا من شعراء النبي ﷺ كحسان وعبد الله بن رواحه وكعب بن زهير فى بردته ومن بعدهم ممن مدحوا النبي كمثل البوصيرى فى برأته وهمزيته ولا باس ان تنشدبصوت حسن فقد استحب فى القرآن ان يقرأ بصوت حسن ونحن نسوق الآن فصولا من حـــديث المولد النبوي على اسلوب علمي ونهج جدي بقدر ما يسمح المقام :

الارهاص والتوقع

لا ريب ان فيما سلف من النبوات التى رويت فى الكتب على لسان الرسل والانبيـــاء ما يخبر عن ظهور نبي عظيم فكان اهل العلم بهذه الكتب يتوقعون ظهور هذا النبي وبعض هذه النبوات في الكتب السالفة من الاستفاضة والقوة بحيث لا يستطاع ابطالها او صرفها عن النبى ﷺ الا بتمحل وتأويل ومحاولة غير مقنعة وقد نقل العلماء الذين ناظروا اهل الكتاب كثيراً من هذه النبوات ولا يتسع المقام لايراد شيء من ذلك (١) ويكفى ان نذكر بعض ما جاء القرآن مما يثبت وجود هذه النبوات فى الكتب السماوية وانا احتج من ناحية عقليـــة لا من ناحية اشارة الكتاب اليها لان الكتاب ليس حجة على غير المؤمن الا ما كان فيه من حجج عقلية والآيات التى فيها اثبات البشارات بالنبي ﷺ كثير ولكنا نذكر من ذلك ما فى نقله الدليل العقلي على وجوده فى الكتب القديمة حتى عهـــد ظهور النبي وبعثه فمن ذلك قوله عز وجل فى سورة البقرة (١٤٦) « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وان فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » وقوله فى الاعراف (١٥٦) « الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيـــل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم » فهاتان الآيتان تؤكدان ان من اهل الكتاب من يعرف محمداً ﷺ رسول الله كما يعرف ابنه من بين الناس وانهم يجدون فى كتابهم الاخبار عن بعثه ووصفه بما فى الآية الثانية ومهما قيل فى محمد ﷺ فانه لا يشك احد فى رجاحة عقله وبعد نظره وذكائه

(١) كتبنا فى هذا المقال الاخاص بالنبوات اوردنا فيه جانباً منها ويرى من هذا العدد فيما بعد.

وفطنته فاذن لا يمكن ان يستدل بشيء يخبر بانه عندهم ثم هو ليس عندهم وايضاح ذلك ان هذا بمنزلة من يقول للآخر انى اعلم ما فى بيتك والدليل على علمى بذلك ان عنـــدك فى الكتاب الفلاني الذى فى خزانة كتبك فى صحيفة كذا خمسين ورقة جنيه مصري من طبع كذا عليها الصورة الفلانية فهل يمكن ان يستشهد بهذا الا وهو موقن صدق خبره اللهم الا اذا كان سفيها اخرق و غبياً احمق واذن يستحيل ان يأتى محمـــد ﷺ بهاتين الآيتين اللتين تخبر ان اهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وانهم يجدونه عندهم فى التوراة والانجيل ثم يقول ان هاتين الآيتين من خبر السماء الا وهو موقن بصحة ذلك وصدقه وإلا كان كمن يحتـــج على دعواه بما يعلم بطلانه بالحس وهـــذا لا يصير اليه من به مسكة من عقل ومحمد ﷺ لا يشك احد انه من ارجح الناس عقلا واقواهم حجة وانفذهم بصيرة .

وعلى هذا بنى ما نقل من الاحاديث عن راهب يدعى بحيرى وما استفاض في المدينة من اخبار احبار اليهود بأن نبيا من العرب سيظهر وانهم كانوا (أى اليهود) يستفتحون به وما نقل عن امية بن ابى الصلت وورقة بن نوفل .

وفى الارهاصات التى تقدمت ظهور النبي (ﷺ) دليل على نبوته ما يذكر من ذهاب احد قواد الحبشة ليهدم الكعبة حتى اذا كان في الطريق ارسل الله عليهم طيرا ابابيل فاهلكته وجيوشه واصبحوا كعصف مأكول ، وهذا كان معروفا بالتواتر زمن النبي ولا بـــد ان كثيراً من الناس زمن النبي قد عرفوه بالمشاهدة لان هذه الحادثة وقعت زمن ولادة النبي (ﷺ) فان من المعروف المتفق عليه ان النبي (ﷺ) ولد عام الفيـــل وبين بعثة النبي وحادثة الفيل ٤٠ سنة وقد جاء بها القرآن في سورة خاصة (الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل * الم يجعل كيدهم في تضليل * وارسل عليهم طيراً ابابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف ماكول .) . وفي هذا دليل على صحة حـــادثة الفيل على النحو الذى ذكرناه فيما ذكر القرآن من الاخبار عن النبي (ﷺ) فى التوراة والانجيل والتعريف بـه ووصفه اذ لا يمكن ان يستشهد بوقوع حادثة الفيل ويحتج بها على قوم يعلمون عدم وقوعها قطعا وليس زمن وقوعها ببعيد عنهم بل اكثرهم كان موجوداً زمن الحادثة .

وفى هذه الحادثة دليل على حفظ البيت الذى قدسه الاسلام فيما بعد واتخذه كعبـــة ومطافاً وموضع اداء ركن من اركانه وهو الحج واخبر انه مقدس منذ بنائه .

نسب النبي ﷺ

لقد جرت سنة الله في انبيائه ورسله ان يختارهم من اشرف اقوامهم نسبا واكرمهم حسبا وذلك لحكمة لا تخفى على البصير وهى انه حينما يختار انبياءه ليدعوا الى دينه فلا بد ان يكونوا ممن تقبل دعوتهم وتحق طاعتهم وتملأ القلوب هيبتهم وذلك لا يكون الا اذا كان الرسول كريم المحتد شريف العنصر لأن هؤلاء هم اهل الرياسة واصحاب المكانة والسيادة وقد كان هذا معروفا عند اهل النظر والبصر منذ قديم الزمان كما جاء عن هرقل قيصر في الحديث الصحيح وهو يبحث فى نبوة محمد (ﷺ) انه سأل ابا سفيان فقال كيف نسبه فيكم قال هو فينا ذو نسب قال هرقل كذلك الرسل تبعث في انساب قومها وفى الصحيح (ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم) ونسب محمد صلى الله عليه وسلم من جهة ابيه عبدالله ينتهى الى معد ابن عدنان وهو لباب بنى هاشم وبنو هاشم لباب قريش وقريش من ذرية اسماعيل لكن لا يذكر على التحقيق ما بين عدنان واسماعيل من عمود النسب وانما يذكر ما بين النبي صلى الله عليه وسلم وعدنان .

واما من جهة امه فهى آمنة بنت وهب بن عبد مناف وهى قرشية وأبوها وهب وهو سيد بنى زهرة .

وقد كان النبي ينحدر من اصلاب زكية الى ارحام طاهرة نقية وقد روى انه لم يلده إلا زواج صحيح .

وقد قال العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم فى مدحه :

من قبلها طبت فى الظلال وفى ... مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر انت ... ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد ... الجم نسراً واهله الغرق
تنقل من صلب الى رحم ... إذا مضى عالم بدا طبق
حتى احتوى بيتك المهيمن من ... خندف علياء تحتها النطق
وأنت لما ولدت أشرقت الارض ... وضاءت بنورك الافق
فنحن فى ذلك الضياء وفى النور ... وسبل الرشاد نخترق

ولادة النبي ﷺ

ولد صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لمـــا ثبت في صحيح مسلم ان اعرابيا قال يـا رسول الله ما تقول في صوم يوم الاثنين فقال (ذاك يوم ولـــدت فيه وانزل علي فيه) والذى عليه الجمهور ان ولادته كانت لاثنتى عشرة من ربيع الاول اما العام الذى ولد فيه فبحسب ما كان يؤرخ به العرب فهو عام الفيل وقد كان العرب يؤرخون باضافة الزمن الى اكبر الحوادث وقد اشرنا فيما قلنا آنفا الى حادث الفيل وقد نقل عن الامام السهيلى ان الشهر الذى ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم من غـــير الاشهر العربيـــة هو نيسان ولا نعرف مأخذ هذا القول أهو الحساب او القياس وتقدير ان مثـــل النبي صلى الله عليه وسلم لا بد ان يكون قد ولد فى اعدل الازمنة وأيمن الطوالع .

وقد ولد ﷺ يتيما لان اباه عبدالله توفى وهو حمل على اشهر الاقوال وكان ابوه قد ذهب فى تجارة الى غزة مع رفقة حسب المعتاد فلما فرغوا من تجارتهم عادوا فمروا منصرفهم بالمدينة ولم يستطع عبدالله لمرض الم به ان يمضى فى سفره فتخلف عند اخواله بنى النجار فمات هناك وكان عمره خمسا وعشرين سنة . قالوا وهذا ابلغ اليتم واعلى مراتبه اختاره الله لنبيه ليؤدبه ويعلمه فيصل فى التربية والعلم اعلى الدرجات من غير ان يكون له اب يرعاه ويربيه ومعلم يرشده ويهديه آيةمن آيات نبوته وحجةمن حجج رسالته كما فى قول البوصيري :

كفاك فالعلم فى الامي معجزة   فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

ولا ريب ان ولادة النبي ﷺ وهى اعظم حدث فى الارض قد اقترنت بغرائب لا تكون الا مع ظهور مثل هذا الحدث العظيم ولا بد ان يكون هذا الحدث العظيم له علاقـــة بالسماء فتظهر نجوم تدل عليه ويكون هذا الحدث من آثارها وهذا على رأى المنجمين واهل المعرفة بالفلك حين يرون مثل هذه النجوم التى يزعمون انها حينما تظهر يكون كيت وكيت ويستدلون بها على حدوث شيء عظيم قال المؤرخون وقـــد ظهر اذ ذاك حين ولادة النبي كوكب احمر وروى المؤرخون عن احد العلماء اليهود من بنى قريظة انـــه قال : قد طلع الكوكب الاحمر الذى لم يطلع الا لخروج نبي او ظهوره وجاء هذا الخبر على وجه آخر عن زيد بن ثابت قال سمعت يهود بنى قريظة والنضير يذكرون صفة النبي فلما طلع الكوكب الاحمر اخبروا انه نبي ولا نبي بعده .

وقد رأيت انه استدل بظهور النجم على ولادة المسيح ايضاً ففي انجيل متى الاصحاح الثانى (ولما ولد يسوع فى بيت لحم اليهودية فى ايام هيرودس الملك اذا مجوس من الشرق قد جاءوا الى اورشليم قائلين اين هو المولود ملك اليهود فاننا رأينـــا نجمه فى المشرق واتينا لنسجد له) .

وكما ذكرت نبوات واخبـــار عن حدوث عجائب وارهاصات عند ولادة النبي محمد ﷺ كذلك ذكر عن المسيح وانا آخـــذ ذلك عن الانجيل ففي الاصحاح الاول من انجيل مرقص (وكان (يوحنا) يكرز قائلا يأتى بعدى من هو اقوى منى الذى لست اهلا ان انحنى واحل سيور حذائه وانا عمدتكم بالماء واما هو فيعمدكم بالروح القدس) .

ويوحنا فى هذا الخبر هو المعروف عندنا بيحيى وهو من الانبياء وقد استهل مرقص انجيله بهذه النبوة عن المسيح وانا ارى هذه النبوة اصدق ما تكـــون على محمد ﷺ لان محمداً ﷺ هو الذى جاء من بعده اما المسيح عليه السلام فكان معه فى وقت واحد وقد اتى يوحنا فعمده واذا اجتمع اثنان فى زمن فلا يقال ان احدهما جاء بعد الاخر .

والدليل الثانى على صدق هذه النبوة على محمد ﷺ دون المسيح ان النبـــوة لا تكون نبوة حقاً اذا كانت عن شيء يقع زمن النبي الذى يتنبأ بها والمسيح عليه السلام ظهر زمن يوحنا واجتمع به .

الثالث : انه نعت النبي الذى سيظهر بانه اقوى منه والمسيح عليه السلام لم يكن اقوى من يوحنا فقد انهى اليهود حياة المسيح على الارض كما انهوا حياة يحيى لا يقال ان المراد القوة فى آيات النبوة وخوارقها لانه لا فائدة من هذه القوة فى تمكين الرسول من اداء الرسالة ويوحنا انما اراد هذا .

الرابع : انه قال انا (عمدتكم بماء واما هو فيعمدكم بالروح القدس) والمعنى انـــه سيبطل المعمودية بالماء والمسيح عليه السلام لم يبطل هذه المعمودية والذى جاء بابطالهـــا انما هو محمد .

ومما ذكر من العجائب عن المسيح كما نقل عن محمد عليهما السلام ما جاء فى هذا الاصحاح فى القطعة الثانية : (وفى تلك الايام جاء يسوع من ناصرة الجليل واعتمد من يوحنا فى الاردن وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السماوات قـــد انشقت والروح مثل حمامة نازلا عليه وكان صوت من السماوات انت ابنى الحبيب الذى سررت به)

فما ذكر من الآيات ليلة ولادة النبي ﷺ ان كثيراً من الاصنام تداعت وخرت لوجهها وسقطت من اماكنها وظهور نور امتد حتى اضاء قصور الشام وارتجاس كسرى وسقوط الشرفات وخمود النيران التى كان يعبدها المجوس فى فارس .

رضاعه صلى الله عليه وسلم

كانت مرضعته حليمة السعدية والسعدية نسبة الى سعد بن بكر بن هوازن . وهوازن هذا هو جد القبيلة التى سميت باسمه وروى ابن اسحاق بسنده الى عبدالله بن جعفر قال حدثت عن حليمة بنت حارث (السعدية) انها قالت (قدمت مكة فى نسوة من بنى سعد نلتمس الرضعاء فى سنة شهباء فقدمت على اتان قمراء فوالله ما علمت منا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله فتأباه اذ قيل انه يتيم وقيل ماعسى انتصنع امه انما نرجو المعروف من ابى الولد فوالله ما بقى من صواحبى امرأة الا اخذت رضيعاً غيرى فلما لم نجد غيره واجمعنا الانطلاق قلت لزوجي والله انى لاكره ان ارجع من بين صواحبى وليس معى رضيع لانطلقن الى ذلك اليتيم فلآخذنه فقال لا عليك ان تفعلى فعسى ان يجعل الله لنا فيه بركة فذهبت فاخذته فوالله ما اخذته الا انى لم اجد غيره فجئت به رحلى فاقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن فشرب حتى روى وروى اخوه وقام صاحبى الى شارفنا فاذا انها لحافل فحلب ما شرب وشربت حتى روينا فقال صاحبى انى لاراك قد اخذت نسمة مباركة) وكان هذا قبل العودة ثم قالت حليمة (حتى قدمنا ارض بنى سعد وما اعلم ارضاً من ارض الله اجدب منها فان كانت غنمى لتسرح ثم تروح شباعا فنحلب ما شئنا وما حولنا احد تبض له شاة بقطرة لبن وان اغنامهم لتروح جياعاً) ثم قالت (فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها حتى سنتين فكان يشب شباباً لا تشبه الغلمان فقدمنا به على امه ونحن اضن شيء به لما رأينا فيه من البركة) واستأذنت حليمة امه ان تعود به سنة اخرى فاذنت امه وعادت به وبقى هناك شهرين او ثلاثة وخافت عليه حليمة فعادت به الى امه .

وكان رضاعه فى بنى سعد مما زاده فصاحة فان بنى سعد كانوا من افصح العرب ويظهر هذا من كلام حليمة الذي نقلنا بعضه بتصرف ذهب بكثير من حسنه وانما فعلنا ذلك لئلا يطول الكلام وقد روى عن النبي ﷺ انه قال (انا اعربكم انا قرشي واسترضعت فى بنى سعد بن بكر) ونذكر ان بركة النبي ﷺ عادت على هوازن وهي قبيلة حليمة — باجمعهم وذلك انهم قاتلوا النبي ﷺ ثم نصره الله عليهم فاسرهم وسباهم وغنم اموالهم

فتوا اليه برضاعه عندهم وخطب احد خطبائهم بين يديه وهو زهير بن صرد فقال (يا رسول الله ان ما فى الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللواتى كن يكفلنك فلو انا ملحنا [1] ابن ابى شمر أو النعمان بن المنذر ثم اصابنا منهما مثل الذى اصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما وانت خير المكفولين وانشد :

امنن علينا رسول الله فى كرم ... فانك المرء نرجوه وننــدخر
امنن على بيضة قد عاقها قدر ... ممزق شملها فى دهرهــا غير
ابقت لنا الدهر هتافاً على حزن ... على قلوبهم الغمــاء والغمر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... اذ فوك يملؤه من محضها درر

فى ابيات اخرى حذفناها وقد من رسول الله ﷺ عليهم واطلق الاسرى ورد السبايا والاموال وقدر بعض رواة السيرة قيمة ما اطلق لهم اذ ذاك بخمسمائة الف الف درهم وفيه نظر والله اعلم.

مرباه ونشأته

كان النبي ﷺ فى حضانة امه آمنة وكفالة جده عبد المطلب وفى كلاءة الله وحفظه ورعايته ينبته الله نباتاً حسناً فلما بلغ ست سنين ماتت امه فى مرجعها من المدينــة من زيارة اخواله بالابواء بين مكة والمدينة وقد جاء فى احاديث ان النبى ﷺ وهو بالمدينة استأذن ربه فى زيارتها فزارها .

وقد ضم عبد المطلب النبي اليه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده وكان يدنيه ويقربه اليه ويدخل اليه اذا خلا واذا نام وكان اذا اعترضه بعض ولده قال دعوه فان له شأناً .

ثم ان جده عبد المطلب مات وهو ابن ثمان وقد أوصى بــه الى ابى طالب ان يحوطه ويرعاه فحفظ ابو طالب هذه الوصية فكان يجعله معه ويحبه حباً شديداً يفوق حب الولد وكان لا ينام الا الى جنبه وكان يخصه بالطعام وكان مما ادبه ربه به انه كان يقرب لــه الطعام مع الاولاد فينتهب الاولاد الطعام ويكف هو ولما هم ابو طالب بالخروج الى الشام فى التجارة تعلق به رسول الله فرق له فخرج به فلما نزل الركب بصرى الشام ذكر اصحاب السيرة انه كان ببصرى الشام راهب يدعى بحيرى وكان ممن له علم بالكتب القديمة وانا ارى ان وجه ما روى من معرفة بحيرى للنبي انه راى فيه مخائل الانبياء فى حركاته وسكنــاته وسمته ولما استنطقه راى فصاحة وفطنة ورجاحة وكلاماً موزوناً فاوصى ابا طالب بالمحافظة عليه والعناية به فرده ابو طالب الى مكة وقد اختلف اهل السيرة فى سنه اذ ذاك فبعضهم قال

١ – ارضعنــا

تسع سنين وبعضهم قال اثنتا عشرة وشب النبي فى كفالة عمه فكـــان افضل قومـــه مروءة واحسنهم خلقاً واعظمهم حلما وامانة واصدقهم حديثاً وابعدهم عن الفحش والاذى قالوا حتى انه لم ير ملاحياً ولا ممارياً وقد سماه قومه لذلك بالامين وقد حفظه الله من اقذار الجاهلية فلم يقع فيه ما يؤخذ عليه ويعاب به ويزدرى من اجله ولا ريب ان هذا كان توطئة للنبوة فلو عرفت عنه هفوة وشاعت عنه زلة لشنع عليه الناس بذلك حينما بعثه الله نبياً فكانوا يقولون مثلا كيف يدعونا الى ترك الفواحش وهو ياتيها وكان لهم فى ذلك حجة وقد قال الشاعر .

لا تنـــه عن خلق وتأتى مثله ... عـــار عليك اذا فعلت عظيم

وعفته وتنزهه وصدقه واتصافه بسائر الاخلاق التى هى من سيماء النبوة ممـــا اجمع الناس عليه من آمن به ومن لم يؤمن .

ولما اشتهر به من الاخلاق العظيمة رغبت خديجة بنت خويلـــد وهى من شريفات قريش ان يتاجر لها بمالها فبعثت اليه مع غلام لها يقال له ميسرة تعرض عليـــه ذلك فقبل وخرج بمالها الى الشام ومعه ميسرة فباع ما معه من السلع ثم اشترى غيره ثم عاد قافلا الى مكة وباعت خديجة ما اتى به من الشام فتضاعف مالها او كاد وحدث ميسرة خديجة بمـــا رأى من كريم خلق النبي وصدقه وامانته وكانت خديجة امرأة حازمة لبيبة فوقع فى نفسها وارسلت اليه انها ترغب فى الزواج منه فقبل بـــذلك وتم الزواج وكان عمر النبي خمسا وعشرين ويذكر ان عمرها كان اذ ذاك خمسا وثلاثين وهى ابنة عم ورقة بن نوفل الذى كان عنده علم بالكتب القديمة وكان يعرف اللغة العبرية وهو الذى بين للنبي (ﷺ) حينما ذهبت اليه وسألته عما رآه النبي (ﷺ)اول ما نزل الوحى — انه الوحى الذى ينزل على الرسل وقال له (هذا الناموس الذى كان ينزل على موسى يا ليتنى جذعا (١) ليتنى اكون حيا اذ يخرجك قومك) فقال رسول الله (او مخرجي هم) فقال : (نعم لم يأت احد بمثل ما جئت به الا عودى وان يدركنى يومك انصرك نصراً مؤزراً) .

وقد ظهر فضل خديجة وصدق فراستها ورجاحة عقلها لما جاءها النبي ﷺ يرجف فؤاده اول ما جاءه الوحى فاخبرها خبره وقال لها لقد خشيت على نفسى فقالت له (كلا والله لا يخزيك الله ابدا انك لتصل الرحم وتقرى الضيف وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق) وهذا مما روى فى الصحيحين فلخديجة وهذا مقامها اولى بقول ابى الطيب :—

ولو كان النساء كما ذكرنا ... لفضلت النساء على الرجال

(١) هكذا فى الروايات وقد رأيت علماء السيرة يشيرون الى انه خبر (كان) محذوفة

دفع شبهة

وهنا نرى ان نذكر شبهة يوردها بعض المموهين من سخفاء المبشرين وذلك انهم يقولون ان محمدا (ﷺ) اخذ دينه عن بحيرى الراهب وهذا لعمرى سفسطة وتخييل وايهام وتضليل لا يذهب اليه من اوتى مسكة من التحقيق لان قصة اجتماعه ببحيرى من احاديث اهل السير .

وثانياً : ان الذين قالوا ان النبي قد اجتمع ببحيرى قالوا انه كان فى الثانية عشرة على اكثر تقدير كما تقدم ومن كان فى هذه السن لا يخاطب بالدين وان خوطب بذلك فلا يعيه.

ثالثاً : انه لو قدرنا ان بحيرى بين له اصول ما دعا اليه من العقيدة وقواعد الشريعة فلقنها وفهمها واحاط بها فى هذه المدة اليسيرة فان ذلك يكون دليلا على انه نبي تؤيده السماء لان احدا فى هذه السن وفى تلك اللحظات اليسيرة التى لقى فيها بحيرى لا يستطيع ان يعى تلك الاصول والقواعد .

رابعاً : لو كان اخذ تلك العقيدة عن بحيرى لبادر بالدعوة اليها وبيانها للناس فور رجوعه ولكن محمدا (ص) لم يدع الى دينه الا بعد ان بلغ اربعين سنة بل انه لم يظهر منه علامات على انه سيدعو الى دين .

خامساً : ان الراهب الذى لقن النبي العقيدة التى كان يراها هى الصحيحة لا بد ان يكون ذا دين كما ان محمدا (ص) معروف بالامانة والصدق فليس بمعقول ان يتواطأ هو والراهب على الكذب والافتراء على الله بانه عز وجل انزل هذا الدين على محمد وحياً وانه ارسله هادياً للعالمين . واذا كان محمد (ص) لم يعرف انه كذب على الناس فهل يكذب على الله كما قال هرقل حينما سأل ابا سفيان هل جربتم عليه كذبا قال هرقل قيصر (ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله) وذلك من افحش الكذب قال تعالى (ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا ،او قال اوحى الي ولم يوح اليه شيء) .

سادساً : لو كان ذلك الراهب صاحب مذهب مخالف للمذاهب المسيحية المنتشرة لذلك العهد لكان له اتباع ما يزالون حتى اليوم .

وتصارى القول فى هذه الشبهة انها اوهى من بيت العنكبوت وان بيت العنكبوت لاوهن البيوت .

اضطلاعه بالأمر

لما حان الوقت الذى قدره الله عز وجل لبدء الدعوة الى دينه الذى ارتضاه لخلقه جميعاً واصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم لينهض بهذه الدعوة ــ انزل عليه وحيه بانه اصطفاه رسولا للعالمين بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله باذنـــه وسراجاً منيراً وكان ذلك على رأس الاربعين من عمره الشريف وههنا آية يعرف بها صدق محمد صلى الله عليه وسلم وهى ما قرره علماء النفس ان من بلغ الخامسة والثلاثين من العمر ولم يظهر منه عــلم ولم يقم بعمل جسيم فهيهات ان يأتى بشيء من ذلك بعد ذلك ومن المقطوع بـــه ان محمداً صلى الله عليه وسلم كان قبل البعثة فى عزلة ولم يظهر منه شيء ومن ذلك كما اشرنا اليه انفاً .

وقد هيأ الله نبيه للنهوض بهذا العبء الثقيل والقيام بذلك الامر الجسيم الوعر المسالك المحفوف بالاخطار والمهالك فآتاه من الحكمة والحلم والشجاعة والجلد والصبر مالم يؤت احداً من العالمين وقد ذكرنا فيما تقدم ان قيام محمد ﷺ بهذه الدعوة يصلح وحـــده ان يكون برهاناً قاطعاً على ان النبي أوتى من الشجاعة قدراً لا يدانيه احد ممن اشتهر بها . وقد جهل آباءهم وسفه احلامهم وعاب آلهتهم فقد اقدم وحده على مقارعة قومه باجمعهم فى مكة ومن ورائهم العرب فى دعوته اياهم الى نبذ دينهم وترك ما وجدوا عليه آباءهم مع تسفيه احلامهم وتفنيد اديانهم وذم آلهتهم كما قالوا فى شكايتهم منه وان بعض ذلك ليقـــذف باولئك القوم فى لهوات المنايا دونه او اهلاك من رام زعزعتهم حتى عن بعضه فهل يقدم على معاداة امة وجبهها بما يثير حفيظتها ويهيج سخطها وغضبها الا من كان من الشجاعة على الحد الذي وصفناه .

وقد اضطلع النبي صلى الله عليه وسلم بالامر ونهض بالعبء حتى هدى الله به العرب من ضلالتهم وقوم من اعوجاجهم والف بين قلوبهم وجمع كلمتهم وفتح منهم آذانـــا صماً وعيوناً عمياً وقلوبا غلفا فاصبحوا خير امة اخرجت للناس يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر وينشرون العلم والعدل والحق ويزهقون الباطل والظلم والجهل بعد ان كانوا ضلالا جهالا متنابذين متعادين يسفكون الدماء وياكلون الميتـــة وينهبون ويسلبون وانى لارى فى ذلك معجزات محمد صلى الله عليه وسلم دونها معجزات احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص وقلب العصا حية وفرق البحر فان ذلك موضع شك كثير من الناس اما ما صنعه محمد صلى الله عليه وسلم من العجائب فى هذه الامة فلا شك فيه ولم يستطعه احد من الناس ولا يستطيعه

احد فهذه الدول العظيمة الغنية تاتى القطر من الاقطار فتمكث مئات السنين تبذل المال ولا تدع سبيلا من سبل الرغب والرهب الا اتته فى ذلك القطر لاستمالته وتحويلــه عن بعض معتقداته وصرفه عن بعض مألوفاته فلا يزداد على مر السنين الا نفوراً منهـــا واستمساكاً بمعتقداته واصرارا على مألوفاته وعاداته .

صفة النبي صلى الله عليه وسلم وخلقه

ونأخـــذ هذا الوصف مما ورد فى الاحـــاديث الصحيحة فما روى فى ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم كان احسن النـــاس وجهـــاً وكان وجهه مستديراً كالقمر وكان مربوعاً ليس بالطويل ولا بالقصير بعيد ما بين المنكبين له شعر يبلغ شحمتى اذنيه قـــال البراء احد اصحابه (ما رأيت احداً من خلق الله احسن في حلة حمراء من رسول الله) وقال كعب بن مالك (وكان رسول الله اذا سر استنار وجهه وكأنه قطعة قمر) وكان اذا ادهن وامتشط لا يظهر فيه الشيب وكان ازهر اللون ليس بالابيض الامهق (١) ولا بالآدم (٢) .

واما خلقه (صلى الله عليه وسلم) فقد تقدم ما يغنى عن الاعادة وحسبنـــا فى الوصف ان نذكر قول الذى خلقه وهذبه وادبه (وانك لعلى خلق عظيم) .

خاتمة

ان الذين يسمعون قصة المولد ويقرءونها ليسوا على شيء ولا يغنيهم السماع ولا القراءة فتيلا ان كان حظهم قاصراً على الاهتزاز عجبا ، والتمايل طربا ، فما ذلك هو الغـــاية من تلاوة تلك القصة كما يظنه بعض الجهال الذين لايطيب لهم المولد الا اذا كان فيـــه التكسر والتثنى بالغناء والعزف على آلات الموسيقى مما لا يجيزه احد من العلماء .

والذى يصلح ان يجعل من يحضر المولد نصب عينه ومطمح نظره ان يقتدى بمـــا يتذكر به من سيرة النبي فى سماعه للقصة بقدر ما فى وسعه فيجاهد فى سبيل اعلاء كلمة الله ويصبر ويصابر ويرابط وان يبذل فى سبيل الله وان يدعو الى الاجتماع والتآلف والتحاب والتناصر وان يرحم الضعيف وينصر المظلوم وان يحفظ لسانه ويده من ايذاء اخوانه حتى يكون مسلما والا يشبع وجاره جائع وانى اذكر قراء هذه الكلمة بمـــا نقلناه من وصف خـــديجة للنبي صلى الله عليه وسلم فليجعلوا ذلك امامهم ونسأل الله ان يجعلنا جميعـــاً ممن يهتدى بهدى ذلك النبي العظيم ويسلك سبيله القويم وصلى الله على محمد وآله وصحبه ومن تبعه باحسان الى يوم الدين .

---

(١) مفرط البياض (٢) اسود